

المتوسّط المغربي

عبد المجيد القدّوري

محمد برادة

THALASSA

منشورات البحر الأبيض المتوسط

المتوسّط المغربي

عبد المجيد القدّوري

محمد برادة

THALASSA

تصورات البحر الأبيض المتوسط

برنامج أبحاث بإشراف البيت المتوسطي لعلوم الإنسان

منسق البرنامج : فرانسوا سيينو
سكرتيرة التحرير : جيزيل سايماندي
منسقة النسخة العربية : ماري تريز زهر

رعى البرنامج كل من :
الاتحاد الأوروبي
وزارة الخارجية الفرنسية
المؤسسة الأوروبية للثقافة
مؤسسة رينيه سايدو للعالم المتوسطي
منطقة بروفانس آلب كوت دازور
مقاطعة بوش دي رون

شكر خاص لمؤسسة الملك عبد العزيز في الدار البيضاء
وللجامعة اللبنانية في بيروت لاستقبالهما

الغلاف :
خارطة محمد الإدريسي وهو جغرافي عربي توفي سنة ١١٦٦ .

تم نشر هذه المجموعة أولا باللغة الفرنسية في
دار ميزونوف إي لاروز Maisonneuve & Larose
أما الترجمة إلى العربية فهي بالتعاون مع
مؤسسة كونراد أديناور وتحت إشرافها



تصوّرات
البحر الأبيض المتوسط

بإشراف تييري فابر، روبير إلبير، غريغور مايرينغ

المتوسّط المغربي

عبد المجيد القدّوري

محمد برادة

THALASSA

عبد المجيد القدّوري / محمد برادة

المتوسط المغربي – بيروت : منشورات تالاسا ٢٠٠٣

www.thalassa-editions.com

Printed in Lebanon

DYNAMIC GRAPHIC
ISBN: 9953-422-46-X

عبد المجيد القدّوري

الرؤى المغربية
لمتوسّط القرنين التاسع عشر والعشرين

مقدّمة

إنّها لحقيقة واقعة أنّ المغرب، ملتقى البحار، يمتلك واجهتين بحريتين : المتوسّط، من جهة، وهو مهد حضارات عدّة وموئل الأديان التوحيدية، ومن جهةٍ أخرى، الأطلسي وهو مجال الصلاتِ منذ العصور السحيقة.

أمّا المغاربة، من جهتهم، فقد اندمجوا باكراً، كفاعلين ديناميكيين، في بناء هذه المجالات المتوسطية، حيث مدّ المغرب جذوره وبسطَ ظلاله، ناهلاً بذلك من الحضارات الأكثر قدماً في إفريقيا وفي حوض المتوسط : ويمكن القول إنه لعب دور محطّة الوصل ومنطقة التبادل بين شمال البحر الداخلي وجنوبه، وبين شرقه وغربه.

كانت تلك الصلات والمبادلات مصدراً لتكافل ثقافات وحضارات يرمز إليها الغرب المسلم. والواقع أن المغرب احتلّ مكانةً رئيسية في صوغ هوية هذا المجال وبنائها. ولكي نبرهن على ما سبقَ ذكره، يكفي أن نشير إلى اسم المكان «جبل طارق» وأن نذكّر بأهميته كمحور اتصال وصلات ومبادلات بين ثقافات وحضاراتٍ من جهتي المتوسّط، كما يشهد على ذلك برج جيرالدا وشقيقه التوأم برج الكُتبيّة.

إنّ هذين الصرحين يمثلان بالفعل – وكلٌّ بطريقته الخاصة – رمزاً لإسهاماتِ مغرب ديناميكي ومبادر، قادرٍ على أن يكون مصدراً للإبداع في حوض المتوسط بأكمله. فهل يُعقَل فهم هذه الطاقة على الإبداع المبادر إذا انطلقنا سلفاً من جهل المغاربة بشؤون المتوسط ؟

كان على المغرب، بوصفه فاعلاً مسؤولاً، أن يتحمّل عواقبَ توسّعه : وكان الغزو الإيبيري المضاد سبباً في انكفائه على ذاته. ومع ذلك فإنّ هذا الانكفاء لم يؤثر سلباً في التداخلات والتفاعلات

الثقافية والحضارية بين ضفتي المتوسط. وعلى الضدّ مما قد يُظَنّ، فإنّ هذه الهجمات المضادة قد صاغت الشخصية المغربية التي تريد، في المقام الأول، وقبل كل شيء آخر، أن تكون هوية متوسطية منفتحة، متسامحة وقابلة لتحوّلات مستمرّة بفعل الظروف والأوضاع.

لذا قد يكون من المفيد التوقّف عند تاريخ معنى المتوسّط بالذات كحدود، وتمحيص الأوليات التي شكّلت أساساً لبناء هذه الهوية ذات السمات المشتركة. وينبغي لخطوة مماثلة أن تُجرى من منظورٍ مقارن لأن الموازاة بين شمال هذا البحر وجنوبه سيتيح لنا أن ندرك كيفَ صيغَ مفهوم المتوسّط بالذات. أي أننا ينبغي أن نحاول – وسيحاول كل منا أن يجري هذه المقارنة بحسب ديناميكية ومنطق المراجع التي تحفّز مسعاه – مقاربة عبور المتوسّط الحدودي إلى القارات (إفريقيا / أوروبا) إلى البلدان المتوسطية المتشابهة جغرافياً والمختلفة ثقافياً.

إنّ تصورات المتوسّط – وهو برنامج طموح – تتعلّق، كما نعلم جميعاً، بتاريخ الذهنيات. وينبغي أن تؤخَذَ هذه الرؤى في صيغة الجمع ليس فقط بين مختلف البلدان المسماة متوسطية بل أيضاً على مستوى كلّ بلدٍ منها على حدة. هل ينظر سكان ساحل هذا البحر، أي سكان شمال المغرب، إلى المتوسط على نحو ما ينظر إليه سكان الداخل في هذا البلد ؟

وعلى المستوى الاجتماعي، هل رؤية الخاصّة مماثلة لرؤية العامة أم مختلفة عنها ؟ ألا نعثر على مواقف مختلفة بهذا الشأن حتّى داخل الفئة الاجتماعية الواحدة ؟

المتوسط في رؤية العلماء

لقد أشرنا في المقدّمة إلى أن المتخيّل المغربي متعدّد. ويجب أن يؤخَذَ داخل الفئة الاجتماعية الواحدة في صيغة الجمع. فهل يمكننا الكلام على العلماء بوصفهم قاعدة اجتماعية متلاحمة ومتماسكة ؟ وهل يشبه موقف الفقهاء على هذا الصعيد، موقف

العلماء والكتّاب والمتصوفة، أم أنه يختلف عنه ؟ هل إن مواقف العلماء حيال المتوسّط هي مواقف جامدة، قارّة، أم أنها، على العكس من ذلك، تتغيّر وفق الظروف ؟

إنّ الاكتشافات الكبرى هي التي ستفتتح الأزمنة الحديثة في أوروبا وسوف تدعم موقعها في البحار والمحيطات ؛ ومن ثمّ تغدو هذه المجالات مصدر تهديد وقلق للمسلمين لأن موازين القوى تميل لصالح المسيحيين. وفي مثل هذا السياق، كان ابن أبي محلّي يكتب في مطلع القرن الثامن عشر إنّ «مالطه غدت هي الثعبان الذي يرصد الحجاج المسلمين ويبتلعهم»[1]. ومن جهةٍ أخرى، كان القراصنة ولصوص البحر المسيحيون يجوبون مياه المتوسّط ويعيقون كلّ مبادرة مسلمة، ملحقين، في الوقت نفسه، أضراراً جسيمة بمستقبل الملاحة البحرية المغربية. وسوف يرمز وقوع حسن الوزّان في الأسر، عام ١٥١٨، إلى هذا التفوق البحري الأوروبي الذي ستكون له عواقب وخيمة على المغرب. والواقع أن المسار الفريد لهذا العالم يلخّص، في حد ذاته، الأوضاع الجديدة التي اتسمت برجحان كفّة موازين القوة لصالح أوروبا ؛ فإثر وقوعه في أسر الصليبيين سلَّمَ حسن الوزّان للبابا ليون العاشر الذي عمّده وقرّبه منه لكي يحسن استغلاله. وخلال عيشه في هذه البيئة الجديدة، كان على عالِمنا أن يحمل هوية مزدوجة : فهو حسن الوزّان بحسب مولده، ولكن كان عليه، نزولاً عند رغبة البابا، أن يصبحَ ليون الإفريقي. مسلماً كان، وصار مسيحياً ؛ كان غرناطي الأصل، فاسيّ النشأة، وأصبح إيطاليّ الموقع. ولذلك قد يجسّد الوزّان، بشخصيّته، كلّ التداخلات المتوسطية في عصره.

إذ تشبّع بمناخ النهضة وبتشجيع من البابا، كتب الوزّان مؤلّفه «وصف إفريقية» الذي ما زال مرجعاً في هذا المجال.

قد يكون مسار حياة هذا العالِم الشهير انعكاساً للمصير الذي عرفه العالم الإسلامي : فهو الذي ولد ونشأ في كنف المجد والروعة، والذي بهر الحواس وفتن النفوس بعظمة وثراء ميراثه الثقافي قبل

أن يشهد نهايةً قاتمةً لا مجدَ فيها ولا عرفان. وعلى نحو مفارق، كانت أوروبا، في تلك الأثناء، تتحرّر من قوقعتها وتخرج منها لغزو مجالات جديدة. وهكذا صار البحر رأس حربتها : فبعد أن دجّنت المحيطات، كانت تسعى لمعرفة الآخر بغية التحكّم به والسيطرة عليه لكي توطّد وتوسّع مناطقَ نفوذها. وسوف توفّر لها هذه الريادة، على المستوى العالمي، سيطرةً على التجارة الدولية، وسوف تمنحها، تالياً، التفوق على المستوى العالمي، من خلال التحكّم بالطرقات البحرية.

كانت هذه الهيمنة قد أصبحت، منذ القرن السادس عشر وحتّى القرن العشرين، واقعاً ملموساً ومعبّراً عنه مباشرةً أو على نحو غير مباشر، من قبل الموفدين المغاربة إلى أوروبا عبر المتوسّط.

لقد رأى العلماء في فقدان الأندلس بوادر احتلالٍ تام. كما أنّ الوقوع في الأسر كان مؤشراً آخر. والواقع أنها استخدمت كتأسيس اقتصادي وسياسي في ناحيتي المتوسط. وكان المقرّي، في القرنين السادس عشر والسابع عشر يشبّه المتوسط بالشَرَك الذي طالما وجد المسافرون فيه أنفسهم معرّضين لهجومٍ مفاجىء. وكان العلماء إذ يشيرون إلى مالطه يتحدّثون عن الجزيرة الملعونة التي ترمز إلى العدو الأبدي : المسيحي. تماماً كما كان المقري يسأل في سرّه «كيف لا يخشى المتوسّط وهو يؤوي العدو الكافر»[٢]. فالبحر يجسّد الموت وجهنّم بحسب أقوال العلماء.

ابن عثمان المكناسي (القرن الثامن عشر – التاسع عشر)، وهو الموفَد المجرَّب، يفرد في رحلته ثلاثين صفحة للحديث عن جزيرة مالطه[٣]. فهل كان هذا الموفد يسعى، لأن يفهم في كتاباته ما الذي يدعو مالطه إلى الاعتداء بحقدٍ على المسلمين ؟ كيف يُعقَل أن هذه الجزيرة التي بقيت طيلة أربعة قرون من الزمن تحت السيطرة الإسلامية سوف تغدو العدو اللدود والعقبة الكأداء بالنسبة للحجاج ؟ قلّة قليلة منهم كانت تنجح في عبور المتوسّط دون أن تتعرّض لمضايقات المالطيين... وكانت الجزيرة تستمدّ قوتها من

وضعها الاستراتيجي ومن موقعها الجغرافي : فهي تمتلك تحصيناتٍ طبيعية يصعب بلوغها. وعلاوةً على ذلك فإنّ فرادة الجزيرة كانت تنبع من تاريخها : فلقد تشكّلت كتلتها السكانية بعد أن توافدت عليها، على نحوٍ متتابع وكثيف، إتنيات وشعوب متنوّعة قادمة من آفاق مختلفة ؛ الأمر الذي انعكس على تركيبة قادتها الذين اتضح أنهم من الأشقياء الوافدين من كلّ حدبٍ وصوب ؛ وهو ما حدا بالمؤلف لأن يطلق على الأهلين فيها صفة «ملاقيط». هكذا أدى حقد المالطيين إلى توقّف التبادل بين الشرق المسلم والمغرب، بين الضفة الشمالية والضفة الجنوبية من المتوسط. وبسبب هذه الممارسات، صار المجال البحري مجالاً متنازعاً عليه. ويبدو أن وجهة نظر ابن عثمان بشأن المتوسط ومالطه هي وجهة نظر كل العلماء الذين ركبوا البحر لبلوغ الشرق.

مما لا شكّ فيه أن العلماء قد بالغوا في وصف المخاطر ومشاعر القلق تلك والتي تعود إلى ظرفِ تراخي الصلة بين العالم الأوروبي والعالم العربي : غير أن هذه الكتابات قد أقامت صلةً بين المتوسّط وبين المخاطر والتهديدات. وكانت خشيتهم تعبّر، بوعيٍ أو من دون وعي، عن المرارة التي عاشتها النخبة من العلماء.

أبو القاسم الزيّاني، وهو رحّالة وعالم جليل في نهايات القرن الثامن عشر ومطلع القرن التاسع عشر، قام بمعظم رحلاته لحساب ثلاثة سلاطين : محمد بن عبد الله (١٧٥٧–١٧٩٠)، ومولاي اليزيد (١٧٩٠–١٧٩٢) ومولاي سليمان (١٧٩٢–١٨٢٢). يعتبر هذا الرحالة، ومعه ابن عثمان المكناسي، الوجهين البارزين في الدبلوماسية المغربية آنذاك. فإذا كان المكناسي مكلّفاً برعاية وتنشيط العلاقات بين المغرب وأوروبا، فإنّ الزياني كلّف بكل ما له صلة بعلاقات السلاطين المغاربة مع العالم العربي الإسلامي. وفي هذا الإطار كلّف أبو القاسم بمهام دبلوماسية عبر العالم العربي الإسلامي وهو الأمر الذي أتاح له السفر عبر المتوسط وإقامة الصلات مع أولي الأمور في المجتمعات التي زارها : أي رجال السياسة والعلماء. وقد وفرت له تنقلاته ولقاءاته المعطيات

الأساسية لتدوين أعماله – وهي مرجع لا يمكن اعتباره نصاً في أدب الرحلات بل مؤلّفاً متميّزاً هو «الترجمانة الكبرى». لقد صيغ هذا المؤلف المشبع بأجواء عصره، بالحسّ الموسوعي الذي يتميّز به كاتبه الذي استطاع، بفضل الخبرة المكتسبة من أسفاره، أن يستخلص المعطيات والملاحظات الضرورية لفهم المؤسسات الداخلية (العائلة، القبيلة، المخزن) ولالتقاط المناخ العام الذي كان سائداً في المتوسّط والعالم الإسلامي. ومن المفيد هنا أن نعرض للنحو الذي تصوّر من خلاله هذا العالم تلك المجالات البحرية.

بدايةً ، تتيح لنا قراءة أعمال الزيّاني – والترجمانة الكبرى، أن نتبيّن فيها رؤيتين لهما صلة بالبحر : الأولى أسطورية، خرافية، والثانية ذات طبيعة علمية. ولكي ندلّل على الفهم الأول سننطلق مما رواه عن نشأة مضيق جبل طارق. فالواقع أن هذا العالم يعتقد أن مجيء البربر إلى المغرب كان في أساس نشأة هذا المضيق : ففي ذلك الوقت كانت أسبانيا والمغرب يشكلان كتلة طبيعية واحدة، ولكن يقال إنّ الشكاوى التي تقدّم بها الأندلسيون للإسكندر اليوناني بشأن الاعتداءات المتكرّرة للبربر على أراضيهم، قد أقنعت هذا الأخير بأن يأمر بإنشاء المضيق.

وسعياً منه لإيقاف هذا التوغّل المتكرّر، قال الزياني، قرر الإسكندر أن يحفر المضيق للفصل بين العالمين :

> «عندما غزا الإسكندر الأندلس... تشكّى أهل تلك المقاطعة لسيّدهم الجديد من الاعتداءات البربرية. فأمر المهندسين والحرفيين بأن يحفروا المضيق... وهكذا امتلأ المتوسّط واستعاد الأندلسيون أمنهم.»[٤]

إلى جانب هذه الرؤية الأسطورية التي هي استكمال للصورة التي أشاعها الجغرافيون – بمن فيهم الجغرافيون اليونانيون – وبناءً عليه لا يتردّد المؤلف في ذكر مصدره : بطليمُس، ويقول في مؤلفه الجغرافي[٥] أن هذا الكاتب قد حاول صوغ مقاربةٍ أكثر

ذرائعية، ومحسوسة، وبالتالي، أكثر علمية. والواقع أنه استعان بتجربته وصلاته المتعدّدة، خلال أسفاره كموفد رسمي من قبل السلاطين الذين عمل في خدمتهم، لكي يتقرّب من رجال السياسة والعلماء ومحترفي الملاحة البحرية، ما أتاح له أن ينجز هذا المؤلّف.

ولكي ندلّل على هذه الرؤية سنستعين ببعض الأمثلة التي عايشها المؤلف. فبعد أن أنجز مهمّته في استانبول، قرّر أن يعود أدراجه إلى طنجة على متن مركبٍ مسيحي كان وقّع مع مالكه عقد إيجار؛ لكنّ هذا يدبّر له «مكيدة» بالاشتراك مع رجلٍ تركي لكي يبحر باتجاه مرسيليا بدل التوجّه إلى طنجة؛ ويروي الزيّاني هذه الحادثة على النحو التالي:

«عندما غادرنا استانبول باتجاه طنجة، توصّل مسافر تركي إلى إقناع قبطان المركب بتغيير وجهته والإبحار باتجاه مرسيليا بدل طنجة كما جرى الاتفاق مسبقاً. وعندما بلغني الأمر، نبّهتُ القبطان وذكّرته بأن من واجبه احترام تعهّده والإيفاء بمضمون العقد. ولكي أراقبه استعنت بخارطة. وعند مفترق الطرقات البحري، وإذ أدركت أن القبطان يتلاعب بنا، صعدت إلى جسر المركب مع رجالي المسلحين وهدّدته بالموت إذا تجرّأ على تغيير وجهته.»[1]

يبدو، بوضوح، أنّ هذا العالِم يجيد استخدام الخرائط البحرية بدراية وبدقّة علمية: وهو الأمر الذي يشير إلى المقاربة المحسوسة والذرائعية، في وقتٍ معاً، التي كان يجريها هذا الرحّالة المجرّب الذي يجيد – على غرار قبطان المركب – فنّ الاهتداء في عرض البحار. ويجدر بنا أن نلاحظ هنا أنه بإمكاننا أن نتبيّن لدى هذا العالِم رؤىً مختلفة للبحر الذي تتغيّر وظيفته بحسب الظروف كما سيتضح من خلال وفي كتابات رحّالة آخر من أواخر القرن التاسع عشر.

يمثّل ابراهيم التادلي حالةً مميّزة على حدة. فقد اشتهر بسعة صدره وذهنه المنفتح. وألّف في مواضيع متنوعة كالفقه والتاريخ والموسيقى، وكان أوّل من كرّس مؤلفاً، ما زال مخطوطاً، لعلوم

البحر. وعاش التادلي (توفي في العام ١٨٩٤) في عصر كانت قد غدت فيه الهيمنة الأوروبية على العالم، أمراً واقعاً. وكان كاتبنا شاهداً على حوادث كبرى كمؤتمر مدريد أو محاولات الإصلاح التي أطلقها السلطان مولاي حسن (المتوفي عام ١٨٩٤) إثر صعود القوّة الأوروبية. وقد أتاح له هذا الظرف التاريخي، كما انفتاح ذهنه، أن يصوغ رؤية ذرائعية للبحر كما يتضح من كتابه الذي يشدّد على ضرورة أن يُعنى المغاربة بالمجالات البحرية.

«يعرًف العلم بتوفّر مبادىء أساس، وأغراضٍ، وموضوعٍ واسم. والحال أن العلم، في مثل هذه الحال، هو علم البحر والرياح. كما أن غرضه، من جهة أخرى، هو أن يعرف السفنَ وأن يحلّل أداءها في الغمر. لذا فقد اختار السفنَ موضوعاً له. ومُنْشِؤها هو نوح.»

ويضيف قائلاً :

«ليس العلم سوى أداةٍ جُعِلَت في خدمة الإنسان، ولكن هذا لا يعني أنها تجعله بمنأى عن الكوارث الطبيعية ذلك أنّ القدَرَ لا رادَّ له.»(٧)

ويحسب هذا المؤلف، إن السفن الشراعية هي أقدم من السفن البخارية، ويذكر أيضاً أنّ اليونانيين كانوا أوّل من فكّر في هذه الأخيرة غير أنهم لم يتمكنوا يوماً من وضع مخطّطهم موضع التنفيذ.

حضارات كثيرة أخرى حاولت أن تخترعَ هذا النمط من السفن، ومن بينهم، على الأخص، الإيطاليون والإيبيريون، غير أن الإنكلين، يقول التادلي، كانوا، هم، أوّل من توصّل إلى ذلك.

إلى ذلك تطرّق المؤلّف إلى ذكر الأدوات التي لا غنى عنها للملاحة كالبوصلة والخرائط، وذلك قبل أن يعمد إلى تعداد طُرُزِ السفن المتوافرة آنذاك : وأوّلها السفن التي تستخدم الطاقة البشرية للمجذّفين، ومن ثمّ تلك التي تبحر بفعل الرياح، تليها السفن التي تستخدم الفحم، أو كما يقول التادلي : التراب والنار ؛ وأخيراً هناك السفن التي تجمع في استخدامها هذه العناصر كلّ أنواع الطاقة

تلك. هكذا يحتكر الإنكليز كل الصناعات البحرية ويسيطرون على المحيطات والبحار:

«لقد اضطررت مراراً خلال أسفاري إلى ركوب سفن فرنسية ونمسوية وعثمانية، غير أني لم أرَ يوماً سفناً شراعية أو بخارية يمكن أن تضاهي سفن الإنكليز. حتّى أن هؤلاء توصّلوا إلى اختراع سفن تستطيع أن تبحر في أعماق البحار من دون أن تُرى، وقادرة على الصعود في أي لحظة لكي تتابع مسارها على سطح البحار.»[٨]

فضلاً عن ذلك فإنّ البحارة قادرون على تحديد مواقعهم بدقّة.

لقد كان هذا المؤلّف مفتوناً بالنظام والتزام المراتب والمهام السائدين على متن السفينة ؛ فهكذا يصف الحياة اليومية في هذا المجال الضيّق. والواقع أن المهام منظّمة بدقّة بالغة منذ صعود المسافرين المصنفين وفقَ فئتين من التذاكر: التذاكر التي تسمح بنقل الزبون ومتاعه المسموح به (وكلّ زيادة تغرّم بمبلغ إضافي) وتلك الخاصّة بوجبات الطعام والمنامة. والقبطان هو الذي يشرف على التنسيق في تنفيذ المهام وهو المسؤول عن الإجابة عن استفسارات الركّاب وتلقّي أي شكوى من قبلهم. لقد بيّنا ممّا سبق أن رؤية التادلي للبحر إنما تنبع، أساساً، من انفتاح ذهنه وتجربته الخاصّة والظروف التي عاش في كنفها، كما من شعوره بالمرارة لما شهده وخبِره من تراجع النشاطات البحرية للمغرب المحتضر. فكيف كان تصوّر العلماء المغاربة للمتوسّط في القرن العشرين ؟

يشكّل نظام الحماية (١٩١٢–١٩٥٦) المنعطفَ في تاريخ المغرب المعاصر، وكان سبباً في الشقاق الكبير في رأي العلماء المغاربة. فقد أبدوا انقساماً حيال المسائل الكبرى : ما هو الموقف الذي ينبغي اتخاذه من نظام الحماية ؟ هل ينبغي القبول به أو رفضه ؟ ما العمل حياله ؟ وسوف يتميّز محمد الحجوي، المتوفي عام ١٩٥٦، عن أقرانه في ذلك الظرف، عبر مواقف شجاعة وجريئة قياساً لعصره. لقد كان عالِماً مستنيراً ومدركاً للتحولات التي شهدتها الضفة الجنوبية للمتوسط والعالم، بالإجمال، خلال النصف الأول من القرن العشرين.

تولّى هذا العالِم الإصلاحي مناصب رفيعة في مؤسسات الدولة المغربية، سواء لجهة المخزن[٩] أم لجهة نظام الحماية. وتمكّن الحجوي، بفضل المناصب التي تولاها، أن يسيطر وأن يفهمَ من الداخل ازدواجية النظام السياسي للمغرب في مطلع القرن العشرين. فنظام الحماية، في رأيه، كان يجسّد الحداثة والمستقبل في حين أن المخزن، في بنيته آنذاك، إنما يجسّد التقاليد والجمود.

استخلص الحجوي، من خلال كتاباته، العوامل الداخلية والخارجية التي اعتبرها مسؤولة عن حال الجمود التي كان المغرب يشهدها في مطلع القرن العشرين. فهو يرى أن نظام الحماية هو أمر واقع وعلى أهل المغرب أن يتكيفوا معه، وعليهم أن يجيدوا استغلاله للالتحاق بالعالم الجديد.

يحثّ عالِمُنا مواطنيه على الانفتاح على حسناتِ الحداثة التي تجسّدها بلدان الضفة الشمالية للمتوسط؛ وكان تبني الحداثة يعني، في نظره، بناء المستقبل. وكان يقول إنّ نظام الحماية قد ولّد ديناميكية وانطلاقة يتعيّن على المغاربة استغلالهما للانعتاق من ميولهم التقليدية ومن جمودهم. إذ ليس بمستطاع بلدان جنوب المتوسّط، كما لا ينبغي لها، أن تبقى جامدة، بل ينبغي لها أن تنتهز هذه السانحة لكي تتزوّد بالبنى والمؤسسات الاجتماعية الاقتصادية التي توفّرها بلدان الضفة الشمالية لبناء مستقبلٍ منفتحٍ ومستقرّ.

لهذا الغرض يدعو الحجوي إلى تبني نظام الشراكة الذي يبقى، في نظره، الصيغة الأفضل لتضييق ولتلطيف التباينات القائمة بين ضفتي المتوسّط. وينبغي أن يقترن نجاح هذه السيرورة بأن يلجأ المغرب إلى العقلانية وإلى التأهيل الذي يكوّن، في نظره، الحوافز الكبرى والضمانات الضرورية لأي إدارة فاعلة وبناءة.

إنّ التحاق المغرب بالانطلاقة الاقتصادية وبالحداثة يمرّ أولاً بالانفتاح وتعلّم اللغات الأجنبية والبحث والإعلام وتأهيل الكادرات، ومن هذا المنطلق يكتب الحجوي في العام ١٩٢١، ما

يلي :

«يجب أن نعلم بأن أوروبا التي تعتبر اليوم بمثابة مركز الثقل لكل الأنشطة الاقتصادية الحديثة، قد توصّلت إلى احتلال هذه المكانة بفضل سياسة التأهيل لديها وبفضل الاحترافية التي أبدتها على كلّ المستويات.»

إذا كان قد قيض للضفة الشمالية أن تنمو، فإنما ذلك لأنها عرفت كيف تنتفع من العلوم التطبيقية. وقد آن الأوان، كان الحجوي يقول – لأن نحذو حذوها : لأن نعمل من أجل إدارة حسنة، ومن أجل الاحترافية والانتفاع بتجربة بلدان الضفة الشمالية للمتوسط.

تصورات المتوسّط في المتخيلّ الشعبي

نعني بالصفة «شعبية» ما تسميه نصوص العلماء العامّة، أي جمهور الناس الذي يتألّف من أغلبية المجتمع المغربي.

تحافظ هذه الكتلة الاجتماعية التي تتميّز بالأمية والجهل على صلاتٍ مباشرة بالفطرة وتلتصق بها.

هكذا، ولفرط التصاقهم بالفطرة، يحافظ العامّة في مدركاتهم على مقاربة ابتدائية وحسية، مستبعدين بذلك كلّ ما يتصل بالمجرّد لأنهم غير قادرين على الإحاطة به. ومع ذلك قد نسأل كيف يتمكن هؤلاء العامة من فهم وتأويل القوى الطبيعية التي تتطلّب منطقاً مجرّداً ؟

لكي يتخطى العامة هذه العقبة يسلكون سبيلين مختلفين : فمن ناحية لجأوا إلى تحويل القوى التي لا يفهمونها من ميادينهم الأولية وأدرجوها في سياق الخارق والإلهي، ومن ناحية أخرى، حاولوا تبسيط ما أرعبهم منها وأدرجوه، بعد تدجينه، في إطار عالمهم.

أي، بكلامٍ آخر، اختار العاميّ العملية التي تقضي بتخفيف صدمة المجرّد والخارق من خلال تقريبهما إلى مستواه لكي

يكتشف أسرارهما الخفية ويتمكّن من تملّكهما.

وإذ يثير البحر لدى العامّة مزيجاً من الفتنة والخشية، فهو يمثّل قوة جامحة لا تني مجالاته التي لا تُحَدّ تذكّر الإنسانَ بهشاشته. كيف يتصوّر الإنسان العامّي البحار والمحيطات ؟ وما سبيله إلى إدراجِ هذه القوة الجامحة في متخيّله المحدود ؟

قوة جامحة

كيف يتصوّر العامي السمات المادية للبحر ؟ هل يدرك أي معنى لمداه وحدوده وأعماقه ؟ لقد حاولنا أن نطرح هذه الأسئلة على بضعة أشخاص، غير أن إجاباتهم جاءت غامضة وملتبسة. فالواقع أن الأشخاص الذين سألناهم لم يتمكّنوا من الإجابة بوضوح لا بشأن الحدود ولا المدى ولا الأعماق. فهذه تبقى في متخيّلهم مرتبطة بمدن أو بأولياء. وهكذا اجتمعت بين أيدينا أجوبة من قبيل «بحر طنجة» أو «بحر الحسيمة» أو «بحر مليلة» أو حتّى بحر هذا الولي أو ذاك.

البحر يثير القلق لدى الانسان العاميّ لأنه يجهل كلّ شيء عنه، في حين أن اليابسة، وهي موطنه الطبيعي، تثير لديه الطمأنينة. فإذا كانت اليابسة تحمله وتطعمه، فالبحر يتدافع به ويفرض عليه قواعده : ففوق مياهه لا يستطيع أن يقف أو أن يحفظ توازنه من دون الاستعانة بوسائل أخرى ؛ ولعلّ الفكرة مما سبق يُعبّر عنها، على أكمل وجه، بالمثل السائر الذي يسأل «كيف يمكن التآلف مع البحر ما دمنا نعلم أنه جُعِلَ من مياه فيما جعلنا نحن من تراب ؟» حيال شعوره بالضآلة والعجز إزاء اتساع هذه القوّة، يستخدم العاميّ متخيّله كما يستعين، للتعويض عن ضعفه، بالقوى الغيبية. ويقرن بين طاقة البحار والمحيطات وقوتها وبين معتقدات عامية قديمة تضفي على البحر قوى إلهية، كما يجري مثل هذا التحويل على الأولياء. والواقع أن كاريزما هؤلاء تطمئن وتلطّف من مخاوف العامي.

لكنّ المهم في الأمر لا يكمن في الكاريزما نفسها، بل في

الروايات التي تبنى حول بركة[١٠] الوليّ : فالولي، في اعتقاد العاميّن يمتلك قوى غامضة تجعله في خانةٍ بين الإنسان والإله، جاعلاً منه، بسببٍ من ذلك، بطلاً يليق بالميتولوجيا القديمة. ومن المنظور نفسه، تجتمع البركاتُ في قدرة الوليّ العاميّ فيوزّعها لصالح أتباعه. وعلاوةً على ذلك، إنه قادر على تحدّي المستحيل وأن يتخطّى كلّ الحدود : إذ يقضي الأولياء أوقاتهم محلّقين في الفضاء ومسافرين فوق المياه. وغالباً ما يولد هؤلاء الأولياء من صلب خرافاتٍ محلية، وإن كان الأساس التاريخي لظهورهم يبقى عصياً على الإدراك. من ناحيةٍ أخرى، عديدون هم الأولياء الذين لا يحظون بالشهرة إلاّ بعد وفاتهم ؛ وتبنى هذه الشهرة على المتخيّل العاميّ الذي يجرّد الولي من كلّ ما هو بشري ويحمّله، بالمقابل، من الطاقة والقدرة ما يجعله خالداً. ولكن، بما هو أبعد من مجرّد الحاجة إلى الاطمئنان، يستمدّ المتخيّل العاميّ علّة وجوده من المعطى المنطقي الذي يحدّ علّة الحياة والموت بالذات. هذا فضلاً عن أن كتب تاريخ الأولياء والقديسين[١١] تزخر بسير الأولياء الذين يتحدّون ما تعجز عنه المخيّلة.

إلى ذلك، يجتاز الأولياء العاميون الأنهر سيراً على الأقدام، ويتدخلون لتهدئة الرياح والعواصف التي تهدّد الصيّادين والمسافرين. وسواها من البركات التي لا تحصى. ولكي نختم هذه الفقرة، لنقل إنّ البحر يمثّل، في نظر العامّة، قوّة وعقبةً، وإنّه لا سبيل لتدجين هذا المجال أو لاستخدامه إلاّ بتدخل قوّة إلهية. ويجسّد أولياء العامة هذه المشيئة الإلهية ومن خلال بركاتهم يستطيعون السيطرة على كلّ هذه الطاقات واستخدامها : وهكذا يكون المتخيّل العامي قد توصل إلى امتلاك هذه القوى الجامحة.

كما ينشد العامي، لهذه المناسبة، أدعية الشاذلي (حزب البحر) : وفي هذا الحزب يدعو الله لأن يوفّر له الحماية والحصانة في البحر بإرغام هذا الأخير على البقاء ساكناً وفي خدمته كما جرى لموسى.

نبع الخصوبة

في المتخيَّل العاميّ تجترح المياه المالحةُ المعجزات. إذ شاءت التقاليد أن يعمد العروسان في اليوم الثالث لزواجهما، إلى بَرْشِ سمكة لأنّ في ذلك جَلْباً لحسن الطالع. وسوف تنتشر هذه العادة التي بدأت ساحلية، في سائر أنحاء المغرب فيما بعد. وفي بعض المعتقدات أنّ من يرى سمكةً في منامه يُكتَبُ له حظٌّ وفير من المال. وفي السياق نفسه، يُعْتَقَدُ أنّ مياه البحر تطهّر، وتشفي أمراض الجلد، وتعالج العقم وتطرد الاتقْاف[١٢]. ولكي ندلّل على ما سبق، سوف نستعين باستطلاع أجري مع نساءٍ جرّبوا هذا العلاج، كما سنستعين، في السياق، بوليّة ذائعة الصيت في علاج العقم والاتقاف : وتدعى لالا عائشة البحرية. نحن نعرف القليل عن حياتها ونشأتها التي تبقى غامضة تحوطها ظلال كثيفة. غير أن الخرافة شاءت أن تكون من أهل بغداد، وجاءت إلى المغرب للتعرّف إلى شفيع أزمّور، مولاي بوشايب، الذي عرفته بقوة التخاطر. ولمّا بلغت فمَ وادي أم ربيع، توفيت وغدت ولية ذائعة الصيت لشفاء النساء العواقر[١٣]. وتقصد النساء قبرها كلّ يوم على مدار أيام السنة. عندما تصل المرأة العاقر، تنزع عنها ملابسها وتكسو جسمها بالحنّة الممزوجة بمياه البحر. ثمّ تغتسل بمساعدة المُقدَّمة، بمياه سبع أمواج متتالية. وعندما تفرغ من ذلك يتعيّن عليها أن تترك هناك بعضاً من ملابسها وكلّ ما استخدمته في اغتسالها كالمشط أو سواه. ثمّ تحين اللحظة التي تعطيها فيها المُقدَّمة حزاماً أخضر يجب أن ترتديه باستمرار. وقبل أن تغادر تترك هدايا للولية. وإذا حملت المرأة تعود حاملةً هدايا أثمن من سابقاتها وتعيد الحزام ؛ أما إذا لم تحمل، فبإمكانها أن تعود، إن شاءت، لتكرار الطقوس عينها، مرّة ثانية أو ثالثة...

تصوّرات سياسية للمتوسّط

رؤية مبنية

من البديهي أنّ البحر يحتلّ مكانة خاصّة في ذهنية الأوروبي.

وهذا، إذ يعجز عن التجرّد من أفكاره المسبقة، ينصرف إلى صوغ فرضيات ونظريات، شديدة التنوّع بقَدرِ ما هي أوروبية المركز، حول «الآخر»، البعيد جداً والمختلف جداً. هذه المصادرات السلبية قد تكون مهينةً «لآخر» كما كانت الحال مع الفرضيات المنبثقة من الكتابة الكولونيالية عن السلوكات المغربية إزاء البحر.

إنّ سلوك المغربي إزاء البحر يرتبط بممارساتٍ دينية : فعندما يفرض الدين على المسلمين بعامّة، وعلى المغاربة بخاصّة، بأن يجعلوا صلاتهم لجهة القِبلة، يكون بذلك يضاعف الأهمية التي يكتسبها الشرق. ومن هنا نشأت الفكرة التي تقول إنّ المغاربة يولون البحرَ ظهورهم. ودائماً بحسب هذه الكتابة، فإنّ الذهنية المغربية مكيّفة وفق هذا الفرض المقدّس، ثمّ جاء نحو التبادل التجاري، الذي كان في معظمه برّياً، ليدعم هذا الزعم : إذ كانت القوافل تجوب الطرقات في المجال الإسلامي.

سوف تسعى الكتابات الكولونيالية، في محاولةٍ لترسيخ أطروحتها، إلى صوغ جملةً من البراهين حول عدم اكتراث المغاربة بالبحر. ولم يكن من قبيل الحياد الموضوعي سؤال الكتابة الكولونيالية : لماذا يتخذ المغاربة هذا السلوك حيال البحر ؟ لِمَ ترعبهم وتقلقهم هذه المجالات ؟ وأولى الإجابات التي تتبادر إلى الذهن هي أنّ البحر بالنسبة للأهلين، كان بمثابة قوة جامحة، عصية على التدجين.

وإذا كان طارق (بن زياد) قد أصرّ في خطبته على تحذير المقاتلين من مخاطر البحر، فلأنهم كانوا، جميعاً، يخشونه. ومردّ هذه الخشية هو الجهل الذي نمّى المعتقدات والخرافات التي ترقى إلى عصورٍ سحيقة.

المخزن والمتوسّط

من العسير الإحاطة بمعنى المَخْزن : فمعانيه تتغيّر بحسب المنظور الذي ينظر إليه منه، أكان منظور الفلاسفة أو علماء الاجتماعيات أو خبراء السياسة. ولكي نبسّط هذا المعنى، لنقل إنّ

المخزن يدلّ على حكومة المغرب ويرمز إلى بقاء الدولة.

من هذا المنظور – ومع العلم بأننا نضع أنفسنا في آلية إدارية تفترض وجود برامج سياسية واقتصادية واجتماعية وثقافية – هل يمكن الكلام على المتخيَّل المخزني ؟ فالمخزن يجسّد الرسمي وهذا الأخير يسعى أولاً وراء الملموس ووراء الفعل.

كان الرسميون المغاربة ينظرون إلى البحر ليس فقط بوصفه وسيلة لفرض احترام المصالح الإسلامية في المتوسّط بصورة عامة، بل خاصّةً بوصفه أداةً تستخدم لإحلالِ الأمن مجدداً في المتوسّط الغربي وفي كلّ الغرب المسلم.

بدءاً بالنصف الثاني من القرن الرابع عشر، وخاصةً بعد وفاة أبي عِنان (١٣٥٨)، بات المسيحيون يشكّلون خطراً أكبر. وخلّف احتلال سبتة عام ١٤١٥، على يد البرتغاليين، شعوراً بالعار لدى المرينيين وأوقعَ في الحيرة، الذهنيةَ المغربية غير المعتادة على وجود الكفار على أرضها. وقد أتاحت هذه الثغرة المستحدثة على الساحل للإيبيريين تضييق الخناق على المغرب ومحاصرته اقتصادياً والإسهام، إلى حدّ بعيد، في التغيرات السياسية التي سيشهدها.

وإدراكاً منهم لواقع تفوّق المسيحيين البحري، تبنّى الأشراف السعديون استراتيجية الجهاد.

كانت القطيعة ما بين الضفّة الشمالية والضفة الجنوبية من المتوسّط تامّةً بحيث أنّ فرص تطوير أسطولٍ قوي كانت شبه معدومة. ولتعويض هذا النقص، اتجه المغاربة إلى تنشيط القرصنة التي شجّعها الموريسكيون الغاضبون مما تعرّضوا له من الطرد والتهجير. من الواضح أن هذه الأعمال تؤشّر إلى تقلّبٍ في المزاج، إلى ردّ، إلى احتجاجٍ ورفض للحصار المفروض من قبل الجيوش المسيحية على الساحل المغربي. غير أن هذا لا يعني، كما قد توحي الكتابات الأوروبية، بأن أعمال القرصنة البحرية هي ذات طابعٍ إسلامي بحت، بل، على العكس من ذلك، فقد كانت هذه الأعمال

تتميّز بطابعٍ عالمي وتتخطّى الحدود بين الشعوب والبلدان والأديان.

إذاً لِمَ كان السعي لإلصاق تهمة القرصنة واللصوصية البحرية بالعالم الإسلامي بصفةٍ عامة، وبالمغرب بصفةٍ خاصة ؟ ألا يخفي هذا الاتهام رغبةً في جعله مذنباً وإلهائه، تالياً، عن قضايا أكثر أهمية ؟

سوف تستخدم القرصنة من قبل المخزن كأداةٍ سياسية. لقد كان السلاطين يستخدمون نشاط القراصنة لممارسة الضغوط على الدول الأوروبية بهدف إرغامها على تجهيز أساطيلهم بالسلاح والذخائر. وتظهر المحفوظات، المغربية كما الأجنبية، كيف استخدم مولاي إسماعيل براعة أميرالاته، أمثال ابن عيشة، فنّيش، لإرغام الأوروبيين على عقد معاهدات سلام معه وبشروط تخدم مصالحه. كما قرّر محمّد بن عبد الله (١٧٥٧–١٧٩٠) أن يتحكّم بأعمال القرصنة لكي يقيم صلاتٍ بالدول الأوروبية على أسسٍ جديدة. وكان الاتجاهان الرئيسيان لهذا العاهل في علاقاته مع العالم الأوروبي، هما العمل على عقد اتفاقيات سلام وتشجيع التجارة. غير أن رغبته هذه اصطدمت بسوء نوايا شركائه، ذلك أن الأوروبيين كانوا يسعون، أولاً، إلى خدمة مصالحهم، هم، وليس مصالح المغرب.

مولاي سليمان (١٧٩٢– ١٨٢٢)، الذي خيّب الأوروبيون رجاءه بسبب سلوكهم المحارِب، قرّر أن يغلق بعض موانئ التجارة في وجههم. وتعهّد بوضع حدّ لأعمال القرصنة. غير أن قراراته هذه أدّت إلى زيادة الضغوط الأوروبية خلال القرن التاسع عشر. وأعطت إنكلترا نفسها، بموجب معاهدة العام ١٨٥٦، الحقّ في السيطرة على الموانئ المغربية وعيّنت قناصل في كلّ منها. وهكذا خرج أمر الدخول إليها من يد المخزن ما شكّل ضربةً قاسمة للأسطول المغربي. وعلى الرغم من الجهود المغربية المبذولة، قرّرت هذه القوى تقسيم البلاد فيما بينها. ومع بداية نظام الحماية، قضي

نهائياً على حلم السلاطين المغاربة ببناء أسطول بحريّ مقتدر.

بعد الاستقلال بعثَ جلالة الملك الحسن الثاني الطموحات البحرية العظمى من رمادها. وقرّر أن يبني للمغرب أسطولاً تجارياً فعلياً يكون بمستوى الطاقات والطموحات المغربية. وبذلك أضفى، وللمرة الأولى، الطابع المؤسسي على الترابط – الذي لم يكن من قبل سوى مجرد حلم – بين التجارة الخارجية وبين أسطول تجاري. ونشأ خلال عهده أسطول بحري بما للكلمة من معنى.

هكذا نرى كيف أن البحر في المتخيّل الرسمي كان يتجسّد على وجهين : سياسي أمني، واقتصادي بحت. وفي مثل هذه الحال لا يمكن فصل متخيل الشخصية الرسمية عن عملها الملموس لأن عملها هذا هو تعبير عن رؤاها ، وقناعاتها، ومتخيّلها...

الهواجس الراهنة وآفاق المستقبل : القوى السياسية والمتوسّط

إن صورة الآخر هي سيرورة ؛ فالآخر يتكوّن بوصفه عدواً، بحسب الظرف. إنها صورة ديناميكية وذاتية ولاعقلانية. وهي إسقاط «الذات» على «الآخر» بوصفه نفياً. فالإنكار والانطواء لنسجٍ شبكة من الصفات الجامدة والمسبقة للآخر، أمران يجعلانه مختلفاً بوصفه عدواً. ذلك أن رفض الآخر ينمي الخوف ويؤجّج العدوانية. يزرع الشك ويجعل المستقبل معتماً. إنه ينمي العنصرية ويحثّ على التطرف واللاتسامح. إنّ أزمة الهوية الراهنة تعزّز أشكال الاستبعاد. والمتوسط – الذي اشتهر عبر تاريخه بأنه جسرٌ وصلةٌ وصلٍ بين الشعوب المحاذية له ينظر إليه اليوم كحوض للمواجهة، والتعارض والانغلاق. وإذ ذاك يسعى المتوسّط لأن يعرّف نفسه لا قياساً «بالآخر»، بل ضدّ «الآخر».

إنّ صحوة وعيٍ متوسطي تتأتى من مجموعة تغيّرات تشهدها الضفة الجنوبية كما الضفة الشمالية لهذا البحر. وهي تغيرات على صلة وثيقة بالتحولات الكبرى التي تهزّ الكرة الأرضية اليوم.

ويسعى المتوسطيون لأن ينظروا مجدداً إلى بحر الحضارات العريقة هذا، لا من خلال رؤية ماضوية وسلبية، بل من خلال رؤية ديناميكية ومستقبلية. وشعار القوى السياسية والأوساط العلمية في البلدان المتوسطية هو «العمل على معاودة ابتكار المتوسّط المشترك».

نظراً لموقعه الجغرافي المميّز، يشكّل المغرب، في متخيّل رجال السياسة المغاربة اليوم، جزءاً فريداً من أجزاء المتوسط. إذ لا ينبغي لأي بلد، في أي بلد كان، أن يكون لا مبالياً بما يخطّط لهذا البحر الذي يشكّل جزءاً من هويته وشخصيته الثقافية. ولكي يدلّل على هذا الموقف، يستخدم عاهل المغرب مجازاً بالغ الدلالة بغية وصف الانتماءات الثقافية لأهل المغرب. فهو يشبّه البلد بشجرةٍ تغرس جذورها في الجنوب والشرق، وتغتذي أوراقها وثمارها من نسيم الشمال. فالمغرب، بحسب هذه الرؤية الملكية، لا ينبغي أن يتمّ تحديده خارج هذا التكافل الثقافي، وكلّ عمل سياسي، حالي أو مقبل، ينبغي أن ينطلق من هذا الواقع لكي يتاح للمغرب، يقول الملك، أن يواجه كلّ تحدٍّ يتعارض مع رغبته الجامحة في الالتحاق بالعالم الجديد أو في بناء مستقبله بتعاون وثيق مع محيطه لكي لا يبقى على هامش التاريخ.

لقد كان مؤتمر برشلونه فرصةً سانحةً لكي تعبّر القوى السياسية المغربية عن رأيها فيما يتعلّق بمصير المتوسّط ومستقبله. وكانت رؤى الأطراف السياسية الفاعلة مختلفة في المقاربات غير أنها كانت متكاملة في غاياتها. هكذا تردّدت موضوعات السلام والأمن وتعدّد الثقافات وتنوعها في كلّ الخطب. وشدّد حزب الاستقلال على المزايا التي يشتمل عليها التنوع الثقافي للضفتين اللتين لصالحهما التعاون فيما بينهما من أجل «جوار ثراء ولتجاوز جوار التخلّف الحالي، وجوار الأذية المتبادلة، لا بل جوار العداء». ولبلوغ هذه الغاية يتعيّن على بلدان المتوسط انتهاج سياسة شجاعة وبناء أسسِ تضامنٍ متّحديٍّ لغرض التقليل من حدّة التفاوت في النمو بين الضفتين.

إنّ محو الصور السلبية الشائعة حالياً في أوساط الرأي العام الأوروبي عن بلدان جنوب المتوسط، وصوغ رؤية مشتركة من الأمل في المستقبل، يشكلان التحدّي الذي يتعين على كلّ متوسطي أن يواجهه. كما يشكّل المهاجرون المتحدرون من جنوب المتوسّط والمقيمون في بلدان الشمال، حافزاً وصلة وصلٍ يجب استغلالهما للوصلِ بين الضفتين. ويجب أن ينخرط هؤلاء في برامج تأهيل ومساعدة تهدف إلى التقارب لا إلى التباعد.

الاتحاد الاشتراكي للقوى الشعبية (USFP) يشيد، من جهته، بأهمية المتوسط. ويدعو البلدان المحاذية إلى انتهاز الفرصة المتاحة في نهايات الألفية الثانية هذه. فمستقبل هذا البحر بين أيدي مواطنيه. وهؤلاء «مصممون على الحفاظ على تقاليدهم، وذاكرتهم التاريخية، وقيمهم، وتنوع ثقافاتهم». لكي يبنوا معاً مستقبلَ تضامن إيجابي، ومن أجل محاربة نزعات الهيمنة، والاستيعاب، والتهميش والاستبعاد والإذلال.

كانت القوى الاشتراكية المغربية تعلّق آمالاً كباراً على مؤتمر برشلونه الذي كان ليشكّل، في نظرهم، انطلاقة لتكوين المجال الأوروبي المتوسطي المستقبلي. غير أن هذه الرؤية تصطدم بعقبة لا يستهان بها ؛ ذلك أنه إذا كانت القاعدة الذهبية للسوق تنصّ على تساوي الفرص أمام الجميع، فهل هذه هي الحال اليوم، بالنسبة لبلدان جنوب المتوسّط كافة ؟ وهل تملك هذه البلدان الوسائل التي تمكنها من الإسهام في صوغ هذا المجال الأوروبي المتوسطي الذي حظي بقدر كبير من المديح سياسياً ؟ ما العمل لكي نضطلع جميعاً بتاريخ بعضنا البعض، وجغرافية بعضنا البعض، وتنوع ثقافة بعضنا البعض ؟ لكي يُكتب لنا النجاح، حريٌ بنا أن نجمع بين المنافسة المشروعة وبين التعاون المعزّز ؟

أما الاتحاد المغربي للعمال (UMT) فتميّز، بوصفه الأداة النقابية المركزية، بموقف متشكك ونقدي إزاء مؤتمر برشلونه. وتبقى رؤيته متشائمة لمستقبل المجال الأوروبي المتوسطي. إذ

يرى الأمين العام لهذا الاتحاد النقابي :

«إنّ أوروبا التي كانت المبادرة إلى الدعوة لعقد هذا المؤتمر، وكانت هي مهندسة أعماله وتوصياته، بدت موحدة، متماسكة، ومصمّمة على تحديد مصالحها الخاصّة والدفاع عنها، في حين أن بلدان الضفة الجنوبية بدت مستفردة من دون تشاور مسبق، ومن دون الحدّ الأدنى من التنسيق.»

فالمتوسّط، في ذهن الأمين العام للاتحاد النقابي، يمثل اليوم «الحدود» الأكثر تبايناً في العالم. وقد اعترف مؤتمر برشلونه بانعدام التوازن بين الضفتين، لكنّه أغفل كلّ بعدٍ اجتماعي. ولم يأت بأكثر من أخطاء الماضي في صياغاتٍ لها «نكهة الحداثة».

لقد جرى تقديم مفهوم التبادل الحرّ بوصفه الحلّ السحري لكلّ العلل التي تعاني منها الضفتان، ومبدأ الشراكة الذي جرى تعريفه بغموض لن يكون له معنى إلاّ إذا تمّ وفق منطق تضامنٍ إيجابي، وإلاّ إذا توصلت أوروبا إلى صوغ مفهوم جديد لا يكون أحادي الجانب، كما لا يكون قائماً فقط على الخوف وتحرّكه ردود الفعل الأمنية. ذلك أن صوغ رؤية متوسطية أصلية، أو معاودة ابتكار المتوسّط وفق المتطلبات المحلية والمناطقية والعالمية، الآن وفي المستقبل، هو أمر منوطٌ بإرادة كلّ متوسطي مقتنعٍ بالمرجعيات الثقافية، ومصممٍ على الحفاظ على ميراث المتوسّط، بحرنا الفريد والمتعدّد، والدفاع عنه في وجه كلّ الشرور.

خلاصة

قد يكون مجزياً أن نعيد قراءة تاريخ المتوسّط على ضوء المشكلات التي تواجهها شعوبه.

المتوسّط يشهد منعطفاً على الساحة الدولية.

أوروبا تبني نفسها وتنغلق على نفسها. المغرب والمشرق يتفككان. الحدود القومية ترفع أو تزول. أوروبا تتحرّر من جدار برلين لكي تبني جداراً آخر في الجنوب، أشدّ خطورة من الأول لأنه جدار ثقافي وذهني.

ويجوز لنا السؤال عمّا إذا كانت أوروبا تستطيع أن تعرّف نفسها وأن تفرض نفسها خارج محيطها القريب والبعيد ؟

يعلّمنا التاريخ بأن المتوسط هو كلّ، وهو مجال متحرّك. يمدّ جذوره في إفريقيا ويمتدّ باتجاه الشرق كما باتجاه الشمال. والأحداث التي تجري في منطقة منه سرعان ما تنعكس على المناطق الأخرى. فالنظام العالمي الجديد يفرض على أوروبا أن تلعب دور القاطرة لمجملِ المتوسّط. ذلك أن المنافسات سوف تتركز في المستقبل عند التكتلات الاقتصادية المتجذّرة في محيطها : اليابان عملاق اقتصادي في آسيا الجنوبية الشرقية، والولايات المتحدة في محيطها الأميركي. إن مستقبل أوروبا يكمن في تعزيز صلاتها بالعالم المتوسطي. وأمنها واستقرارها مشروطان باستقرار محيطها. فالتاريخ يظهر لنا أنّ الجهل بالآخر واللامبالاة المزدرية إزاءه هما مصدر كلّ تطرّف. ومحاربة أشكال الاستبعاد والانفعالات يتطلّب من كلّ متوسطي إعادة نظرٍ في ذات نفسه لكي ينظر إلى المتوسّط مجدداً بمنظور الآفاق الثقافية، وعلى المدى البعيد، لكي يعيد اكتشاف المتوسّط العميق الغور، المتربّع على تاريخه.

الحواشي

(١) القدوري، عبد المجيد، إبن أبي محلّي، الفقيه الثائر ورحلته الإصليت الخريت، الرباط، ع ي ظ، ص ٨٣ ؛

(٢) أحمد بن محمد التلمساني المقري، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها ابن الخطيب، بيروت، ١٩٤٩، ج١، ص ٤٥-٤٦ ؛

(٣) محمد بن عثمان المكناسي، البدر السافر لهداية المسافر إلى فكاك الأسارى من يد العدو الكافر، مخطوط، BGH52, ، من ٦٣ إلى ٩٥ ؛

(٤) أبو القاسم الزيّاني، الترجمانة الكبرى في أخبار المعمور براً وبحراً ، تحقيق عبد الكريم الفيلالي، المحمدية ١٩٦٧ ؛ ص ٩١-٩٢ ؛ وأيضاً ص ٧١ و٧٧ ؛

(٥) الزيّاني، الترجمانة الكبرى، المرجع المذكور، ص ٣٠٩ ؛

(٦) نفسه، ص ١٢٩-١٣٠ ؛

(٧) ابراهيم التادلي، زينة نحرٍ في علوم البحرِ، ضمن مجموع مخ خ ع ١٣٢٧، ص ٢٠٠ ؛

(٨) التادلي، المرجع المذكور، ص ٢٠١ ؛

(٩) مخزن، تعبير مغربي يقصد به، اصطلاحاً، الحكومة المغربية.

(١٠) بركة : نعمة إلهية، يمنحها الوليّ ولها تأثير قوي على العامة.

(١١) عبد الحق بن اسماعيل الباديسي (القرن الثالث عشر) ، المقصد الشريف والمنزع اللطيف في التعريف بصلحاء الريف، تحقيق سعيد أعراب، الرباط، ١٩٨٢ ؛ محمد الحسني بن عسكر (القرن السادس عشر) ، دوحة الناشر لمن كان بالمغرب من مشايخ القرن العاشر، تحقيق محمد حجي، الرباط، ١٩٧٦ ؛

(١٢) اتقاف : معتقد عامي قوامه الاعتقاد بأنه إذا كانت الفتاة لا تتزوج، أو المرأة لا تنجب، فإنّما ذلك يكون بفعل سحر.

(١٣) خرافة نسمعها في كلّ المدن الساحلية المغربية تقريباً.

(١٤) المقَدْمة : إمرأة تـابـعـة لـلـوليّ مـهـمـتـهـا إعـانـة المريضـة عـلـى إتمام الـطـقـوس.

محمد برادة

مشروع لِلْحُلْم

منذ عشر سنوات، اكْتَسح اسم «البحر الأبيض المتوسط» مجال الاهتمام في الصحافة والسياسة والثقافة بالمغرب، وأصبح ذلك البحر الهادئ، المحفوف بأطياف رومانسية مثل بُحيرة لامَرْتين، يوقظ في النّفوس والعقول آمالاً ومشاريع متصلة بالتنمية والشراكة والحوار الحضاري مع جيرانٍ يقطنون على ضفاف البحر الأبيض المتوسط منذ القِدَم. وَوَجَدْتُني، بغَيْر قصد، مشدوداً إلى هذا المسار «الواقعي» الذي ارتبط به اسمُ البحر الأبيض، لأنّني تلقيتُ عدداً من الدّعوات للمشاركة في ندوات وموائد مستديرة تُعقَد بأسبانيا وفرنسا وإيطاليا ولبنان : عن دَوْرِ هذا البحر الجميل في بَلْوَرة الوِئام والسلام وحُسن الجوار بين سكّان ضِفافِهِ، وخاصة بين شعوب الشواطئ الشمالية وشعوب الشواطئ الجنوبية.

كان الفُضول، أوّلَ الأمر، هو ما يَدْفَعُني الى تَلْبِيَةِ دعوات الحوار، لأنّ السياق السياسي – الاجتماعي، منذ الثمانينات، كان يُعلن عن دوافع وِقائية وأتنية تَحْدو بالمتوسطيين الأوروبيين إلى اسْتِباقِ الأحداث وَوَضْع حدٍّ للجِوار المقلِق الذي يحمل مئات العاطلين الباحثين عن شغل ومعهم بُذورُ توجّهاتٍ دينيّة مُتطرّفة قد تُزَعْزِع الاستقرار وتخدش الصورةَ الصافية التي تريد الفئات الأوروبية العنصرية أن تحافظ عليها بعيداً عن الخِلاسية والهجانة !

وشيْئاً فشيئاً، أَخذت تتّضح بأعماقي ملامحُ علاقةٍ سريّة تشدّني إلى البحر المتوسط عَبْرَ محطّاتٍ وفتراتٍ مختلفة من حياتي. بعد أسفار كثيرة، نسبياً، إلى أقطار وقارّات مختلفة، أحس أن الفضاءات والمدن المتوسطية تظل الأكثر إلفةً والأقرب إلى نفسي، وذلك بالرّغم من أنني عشتُ سنواتٍ طويلة في مدينة الرباط الأطلسية. هل تعود هذه الإلفة المتوسطية إلى السحر الخفي لتأثيرات النصوص الأدبية والفكرية التي تَستوحي المتوسط، أَوْ كتبَها مُتوسطيّون استَدْفأتْ أقلامُهم بنُورانيةِ شمسٍ تتسلّل خِلْسَةً إلى القلوب ؟

ولعلّ طه حسين هو مَنْ أيقَظَ في ذهني، أول مرّة، صُورةَ البحر الأبيض المتوسط بوصفه ذاكرةً وحضارةً وأفقاً لمستقبلٍ ساطعٍ كان العرب يتطلّعون إليْه، آنذاك، بِشوْقٍ وحماس... كنتُ طالباً بجامعة القاهرة، في نهاية الخمسينات، وكان طه حسين ما يزال يملأ السَّمْعَ والبصر، ويدافع عن أفكاره بذكاء ومثابرة. وعندما قرأتُ كتابه «مستقبل الثقافة في مصر» ، وقعتُ تحت تأثيرهِ لأمدٍ طويل كأنّه كان دفاعاً مُقْنعاً عن «النَّموذج» الذي كان يَفْتِنُ الصّفوةَ المثقّفة العربية آنذاك : نموذج المجتمع الغربي العقلاني، الديموقراطي الذي يرفع لواء الإنسانية (الهيومانية) وشعار التقدُّم اللاَّمحدود... واعتمد طه حسين على منطقٍ للمقايسة جاذب وخادع، لأَنه أَوْضح أن سرَّ نجاح الغرب إنّما هو كامِنٌ في العودة إلى التراث اليوناني والروماني وتمثّل الفكر السياسي المتصل بنموذج المدينة اليونانية وقِيَمها الديمقراطية التي غمرتْ شواطئ البحر الأبيض المتوسط بأَنوار المعرفة والحضارة الإنسانية. لقد كان سبيلُ الغرب إلى إحياء النموذج اليوناني هو التعليم والحرية السياسية، ولذلك يَلزَمُ مصر أَن تَستعيد انتماءَها المتوسطّي وأن تتخذ من إصلاح التعليم وإصلاح نظام الحكم على المنوال الغربي طريقاً إلى الدخول في مسار البحر المتوسط الذي تقُودُه مجتمعاتُ الغرب بنظامها الحالي المتفوّق... وكان طه حسين قد أنجز كتابه سنة ١٩٣٨ قبل اندلاع الحرب العالمية الثانية، ولم ينشره إلاّ بعد انتهائها، ورغم ذلك يُغيّر شيئاً ممّا كتبه، وكأَنّ الفاشستية والنازية لا علاقة لهما بثقافة المتوسط وبالنموذج الديموقراطي اليوناني الذي استوحَتْه أوروبا في نهضتها الحديثة ! لم يلتفت طه حسين، إذن، إلى ما خلَّفته الحربُ العالمية الثانية من شكوكٍ قوية وملموسة في قيم الديموقراطية والعقلانية والتقدّم، أَو لعلّه كان ما يزال مقتنعاً بأَن سبيل الخروج من تاريخٍ ريبيٍّ مُتجمّدٍ هو التحاق مصر بالشواطئ الشمالية للبحر المتوسط مُقْتَفِيَةً خُطى فرنسا في بدايات نهضتِها، وكأن الحرب هي مُجرد حادثة سير لن تخلّف ندوباً عميقة ولَنْ تُنْقِصَ من نموذجية الثقافة المتوسطيّة المستمدَّة

من الهيومانية اليونانية... ظل طه حسين مصراً على حُلْمِه المتوسطيّ، وعندما أُتيح له أن يصبح وزيراً للتعليم، سارَعَ إلى إعلان التعليم حقّاً ضرورياً للجميع مثل الهواء والماء، وأدخل إلى البرامج تدْريسَ اللغتَين اليونانية واللاّتينية حتى يُتاحَ للطلبة أن يقرأوا مصادر الحضارة المتوسطية في أصولها وأنْ يَسْتَوْعِبوا أسرار نهضة الغرب المستوحاة من فترات الازدهار والتقدم في حوض البحر الأبيض المتوسط... ذاكَ كان حُلمنا الذي عبّر عنه طه حسين بذكاءٍ وحساسية لافتَيْن للنظر، لكن الحلم سرعان ما تكسّر على أرض الوقائع التي عاشتها شعوب المتوسط العربية من الأربعينيات إلى اليوم.

وأحتفظ في ذاكرتي أيضاً بِلَحْظَةٍ أخرى للحُلْم المتوسطيّ أقرب ما تكون إلى أحلام المراهقة، وهي التي صوَّرها الكاتب الصحفي التونسي عليّ الدوعاجي في مجموعة من المشاهدات تحمل عنوان «جوْلَة حَول حَانات المتوسط». عندما قرأت الدوعاجي، وجدتُ صورة شابّ عربي يريد الخروج من الشرنقة والانطلاق وراء المغامرة، للالتِقاء بالمرأة المتحرِّرة من الوصاية، ولاكتشاف جوانب المتعة التلقائية التي حققتها مجتمعات الحداثة في الضفة المتوسطية الشمالية التي تبدو مُتميّعة وبعيدةَ المنال عندنا... والصفحات القليلة التي كتبها الدوعاجي تبقى عالقةً بالذاكرة لأَنّه اعتمد على الحكايات الطريفة وعلى الأسلوب الساخر والتخيُّل المسلّي...

أظنّ أن علاقتي بالبحر المتوسط، على مستوى الوعي، لا فقط على ما اخْتَزَنَتْه الذاكرة، دخلت منذ الستينات مرحلة الثنائية المؤلمة : علاقة رفض سياسة الدول المتوسطية الاستعمارية الحريصة على استِدامة وِصايتِها على الشعوب «المتخلّفة»، وعلاقة التجاوب والتفاعل مع كتابات وإنتاجات مُبدعي الضفاف الشمالية لأَن الأدب والفن هما اللذان يمدّان جسر الصّداقة بين الثقافات والشعوب ويُبقيان على شيء من الأمل في بَلْوَرَةِ أُسُسٍ

إنسانية مختلفة عن النّزعات العنصرية وعن الحسابات المصلحية التي توجّه مَطامِعَ الدول الكبرى داخل حوض البحر المتوسط وخارجه.

وأَجدُني، بالفعل، مشدوداً أكثر إلى الميراث الإبداعي المتوسطيّ الذي يقدّم فضاءً حقيقياً للضِيافة والألفة ونَسْج خيوط الحميميَّة الوثيقة. كثيرةٌ هي الأسماء التي أَطْعَمتني على موائدها المتوسطية المتعةَ وإيقاع الكلمات السحرية وخَمْرَ المحبَّة : سيرفانطيس، لوركا، خوان كويتصولو، بيير لوتي، كامي، سارتر، مالرو، أندريه جيد، بيراندللو، مورافيا، هوميروس، رِتسوس، كمال يشار، ناظم حكمت، ايفو اندريش (Ivo Andric) صاحب «نهر على جسر الدّرينا» الذي كان يُفضّل الحكي الشهرزادي لأنه يَنْجح في تصبير الجلاّد وتعليق حكم الموت ويُديم وَهْمَ الحياة ... فعلاً، يجب أن نترك الكتّاب والشعراء يَحكون لأن كلماتهم هي الأَقدَر على النُّفاذ إلى الأعماق وتَخَطّي الحدود المفتَعلة بين شمال وجنوب لبُحَيْرَةٍ تَسْتَدْفِئ بنفس الشمس وتَتَقاسَم عددا من الأساطير والأهازيج وغذاءات الروح ... وماذا أقول عن لوحات وتماثيل بيكاسو، وميرو، ودولاكروا وماتيس ؟ ألا تَشتمل على علامات وألوان وملامح تُلخّص، وَحْدَها، كِبرياءَ المتوسِطيّ وانْدِفاعَه وحسِّيَّتهُ المفرطة ؟ كيف نسمي تلك العلاقة القوية التي شدَّتْ ماتيس إلى طنجة وإلى الضوء النوراني الذي أضفى على لوحاتِه سحراً خاصّاً لا يكشف عن نفسه إلاّ لِمَنْ عرف كيف «يحتفظ بما هو مستَتِر، مختبئ في الثنايا» ؟

أقول في نفسي : لِحسن الحظ أن هناك إبداعات الكُتّاب والشعراء الفنانين وإنتاجات المفكّرين، التي تُنبّهنا، في لحظات الغضب، إلى أن الغرب المجاور لنا في البحر المتوسط ليس كتلةً واحدة متدثّرة بالتكنولوجيا ويمظاهر الغَطْرَسَة، تُرسل نظرات الاستعلاء والاحتقار نحو جيران الجنوب... لا، ليس الغرب كتلةً واحدة، تقول لنا تلك الإبداعات، بل هو كُتَلٌ ومناطق، تخْترقُه جدليةُ الظاهر

والباطن وجدليّة السّعي إلى تحقيق الكينونة العميقة، والبحر المتوسط أَحَدُ مكوّنات تلك الجدليّة الفاعلة في أعماق هويّةٍ مُتعدّدة بالضرورة تُعبّر عنها، في مراحل تلقّها وصيرورتها، تلك الكلمات والأنغام والقصائد والألوان والخطوط...

الآن، وأنا أحاول تفسير انْجذابي إلى بُحيرة المتوسط، أعود إلى التفكير في ذلك المسار الدّاخلي، يشبُه الأسطوري الذي يسكن في أعماق بعض المثقفين والمبدعين المغاربة : مَسار باتجاهين نحو جنوبٍ وشمال. في الاتجاه الأوّل، نِداء إفريقي يُذكّرني بِجذورٍ منغرسة في أحشاء القارّة السوداء ذات التاريخ المليء بالقهر والاستغلال والعنف والتّمزّقات... في الاتجاه الثاني، نِداء نحو «الصُّعود» إلى شمال لا تُخمّنُ العينُ مَداه، لكن المخيِّلة تصوّره لي فسيحاً بلا حدود، ينطوي على كل المفاجآت السارّة...

ولعل نداء الشمال، هو ما يُفسر لي الآن، لماذا أحببتُ مدينة طنجة وتعلّقتُ بها منذ زُرْتُها أول مرّة سنة ١٩٥٨. لقد اقْتَرَنَتْ هذه المدينة عندي بصورة البوّابة الكبيرة التي تَصِلُني بِعَوالِم البحر الأبيض التي، رغم اختلافها، كنتُ أجدُها أليفةً... منها شاهدتُ، بالعين المجرّدة بنايات مدينة طَريفَة في الشاطئ الإسباني المجاور ؟ ومنها عبرتُ إلى قرطبة وإشبيلية وغرناطة لألتقي بحضارة أندلسية ذكّرتني بامتداداتي التاريخية وبانتمائي إلى حضارة المتوسط المتعدّدة، المتحوّلة، المتقلّبة بين لحظات الوئام والحوار، ولحظات القطيعة وهجمات الحرب... وأُحسُّني محظوظاً لأنّ رحلاتي نحو المتوسط كانت دائماً مُمكنة ومُتيسِّرة، بينما هي الآن، بالنسبة لمجموعة من شبان بلادي العاطلين ممنوعة إلاّ عبر قوارب الموْت التي تَدْفَنُ آمالهم في بَطن الحوت !

ماذا يفعل كاتبٌ مثلي وهو يرى، منذ عشرين سنة، أبواب التغيير تكاد تكون موصودة، وقوّة التقاليد والسلطة الموروثة تتَحايلُ على وَأدِ مال المواطنين والشبان ؟ إنّه يُمْعِنُ في مُلاحقة مَساقط الضَّوْء التي تَغْمُر صورةَ البحر الأبيض المتوسط لِتُظْهِره

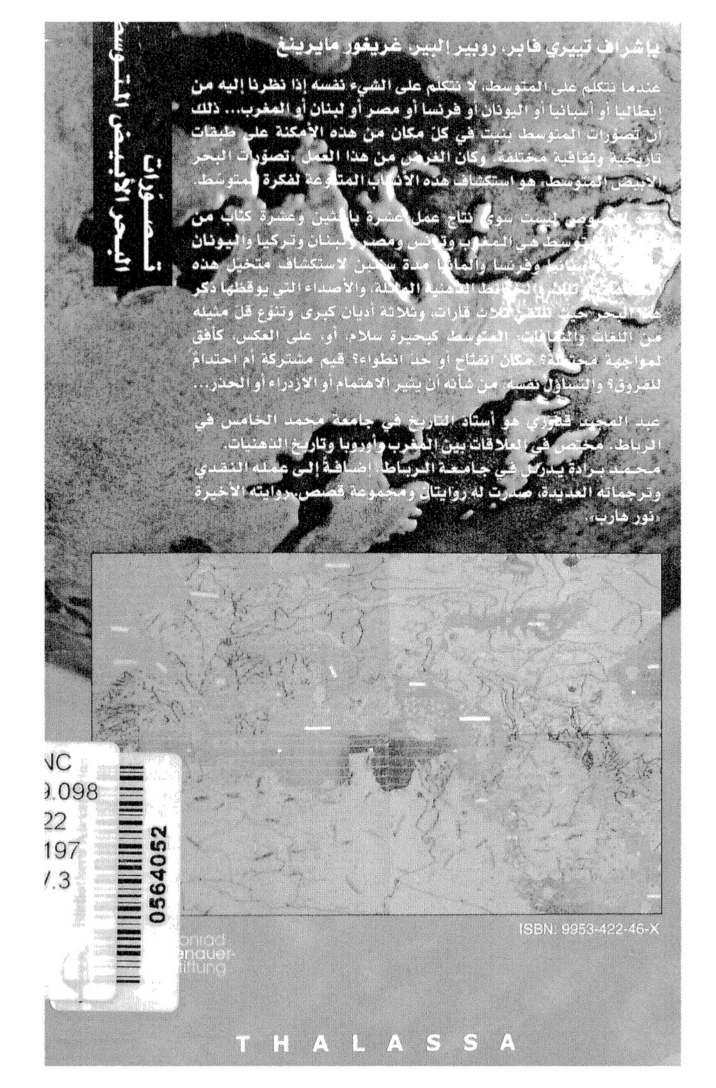
فضاءً ممكناً تتحقّق داخله توازنات مفقودة بين نزعات الاستعمار والعنف والاستغلال من جهة، وبين مشاريع السلام والحوار وحسن الجوار، من جهة ثانية. هذا ما يجعلني أشعر بضرورة البحر الأبيض المتوسط بوَصفه هويةً وأفقاً للتعدُّد والاختلاف والهجانة المخصِبَة... عندئذٍ تتلاشى مخاطر حَرْب الثقافات ويغدو الأفق المتوسطي إمكانية ملموسة لإلغاء التفوّق الاستغلالي العنصري عند مُحترفي السياسة في الضِّفاف الشمالية، بإلغاء السُّلطويّة والماضوية عند حكّام الشواطئ الجنوبية حرب الثقافات لا تتقهقر إلاّ أمام قيمتيْن أساسيتين : ثقافة الإبداع والمواطنة الديموقراطية. وهاتان القيمتان ليستا مُعْطَيَتَيْن مرةً واحدة وإلى الأبد، لأنهما مرتبطتان بالوعي الدائم وبالممارسة النقدية التي تكشف عيوب الرّتابة في الفكر والثقافة والسياسة وتدقُّ ناقوس الخطر كلّما هدَّد التسلُّط حقوق الإنسان وكلَّما أصبحت حرية الفرد مُعرَّضةً للتسخير والرقابة والاستعمال المُشين.

هكذا أتخيّل الآن جوهر علاقتي بالبحر الأبيض المتوسط، بعد أن عشتها على مستوى اللاوعي والمشاعر التلقائية : مشروع حُلم بجَناحَيْن : جناح الإبداع المعبِّر عن مُستقبل لا يكفُّ عن المجيء وعن التشكُّل، يُقاوم كلَّ ما يَخْنق الكينونة، ويُشيِّد جسور صداقةٍ حقيقية بين سكّان البحيرة، وجناح المواطنة التي تُعيد للفرد اعتباره، وتحمي حريَّته، وتجعل الديموقراطية وسيلةً لحماية الشعوب المتوسطية من متاهات التماميَّة والعنصرية والطائفية.

أَفهم جيّداً أن يُعطى اهتمامٌ كبير، في اللّقاءات التي تُعقَد بين ممثلي دول وشعوب المتوسِّط، للجوانب الاقتصادية والاجتماعية لأنّ الشمال حريص على وَقْفِ الهجرة السريّة وعلى مواجهة المشكلات المتصلة بالحركات الأصولية واستعمالها للدّين في أغراض سياسية... لكنني أظن أن ذلك لا يستجيب لتطلّعات شعوب المتوسط الجنوبية التي لا تنتظر من جيرانها الشماليين مشاريع الشَّراكة والمساعدة الثقافية فقط، بل تطمح، أساسا، إلى مساندةٍ

فعلية ومنظّمة لإنتاجات الإبداع والثقافة القادرة على دَعْم قوى الشباب ومشاريعه الحالمة بمجتمعاتٍ أفضل، متحررة من الاستبداد والوصاية وعبادة الماضي. بهذه المراهنة على الحلم والإبداع والثقافة، يغدو البحر الأبيض المتوسط مختبراً لبلوَرَةِ الكلمات واللُغات التي تؤمن بالحرية والاختلاف وتُشيّد مُعجماً جديداً للحوار والتّفاهم بين مَنْ يؤمنون بأن المتوسط ضرورة للمستقبل أكثر مما هو فضاء جغرافي لِماضٍ يضمُّ تاريخاً مطبوعاً بغيْرِ قليل من العنف والكراهية والتوتر بين الجيران.

مشروع هذا الحلم، إذن، لا يلغي مشاريع الشراكة والتعاون وتبادل الخبرات، لكنه يراهن أكثر على إشراقات الإبداع، وإنتاجات الثقافة والفكر حتى تستطيع شواطئ المتوسط وضِفافه أن تَصْدح بسمفونيات الصداقة والشعر التي ستفتح الطريق أمام تآلف اللّغات وتجدُّد الهويات في ظل الحريّة والصيْرورة.



بإشراف تييري فابر، روبير ألبير، غريغور مايرينغ

عندما نتكلم على المتوسط، لا نتكلم على الشيء نفسه إذا نظرنا إليه من إيطاليا أو أسبانيا أو اليونان أو فرنسا أو مصر أو لبنان أو المغرب... ذلك أن تصوّرات المتوسط بنيت في كلّ مكان من هذه الأمكنة على طبقات تاريخية وثقافية مختلفة. وكان الغرض من هذا العمل «تصورات البحر الأبيض المتوسط» هو استكشاف هذه الأنساب المتنوعة لفكرة المتوسط.

هذه النصوص ليست سوى نتاج عمل عشرة باحثين وعشرة كتاب من المتوسط هي المغرب وتونس ومصر ولبنان وتركيا واليونان وإسبانيا وفرنسا وألمانيا مدة سنتين لاستكشاف متخيل هذه البحيرة المتفرقة الخرائط الذهنية الماثلة، والأصداء التي يوقظها ذكر هذا البحر حيث تلتقي ثلاث قارات، وثلاثة أديان كبرى وتنوع قل مثيله من اللغات والثقافات: المتوسط كبحيرة سلام، أو، على العكس، كأفق لمواجهة محتملة؟ مكان انفتاح أو حد انطواء؟ قيم مشتركة أم احتدام للفروق؟ والتساؤل نفسه، من شأنه أن يثير الاهتمام أو الازدراء أو الحذر...

عبد المجيد قدوري هو أستاذ التاريخ في جامعة محمد الخامس في الرباط. مختص في العلاقات بين المغرب وأوروبا وتاريخ الذهنيات.

محمد برادة يدرس في جامعة الرباط، إضافة إلى عمله النقدي وترجماته العديدة، صدرت له روايتان ومجموعة قصص، روايته الأخيرة «نور هارب».

ISBN: 9953-422-46-X

Konrad
Adenauer-
Stiftung

THALASSA